

## كَلِيلَةُ وِدْمَنَةِ كِتَابِ الْأُمَمِ

أ.د. عقيل عبد الحسين (\*)



ملخص البحث:

افتراض البحث أنَّ في الثقافة العربيَّة الكلاسيكيَّة كتباً تصحُّ تسميتها «كتبُ الأمم»؛ لأنَّ موضوعها الأمةُ ومدارها الإجابةُ على سؤال: ما الذي يضمنُ بقاءَ الأمةِ قويَّةً ومُتماسكةً وعصيَّةً على العدوِّ؟ وتنشأ هذه الكُتُبُ في سياقٍ تاريخيٍّ يظهرُ فيه ما يُهدِّدُ الأمةَ، مثل دكتاتوريَّة الحاكم وجوره وما تبعثُهُ من عداوةٍ في نفوس الرعيَّة، وكرهٍ له. ومثل الانقساماتِ الفكريَّة، والمذهبيَّة، والعِرقِيَّة، التي قد تفيدُ من هفوات الحاكم وعداوة النَّاسِ له فتسبِّبُ تمزيقَ الأمة. ويُنشئ هذه الكُتُبُ مثقفون لهم اتِّصالٌ مباشرٌ بالسُّلطان، وقريبون من الصِّراعاتِ الداخليَّة والخارجيَّة، يعون أثرها البعيد والقريب في تعريضِ كيانِ الأمة للخطر والزوال، فيُضمِّنون الكُتُبَ ما يكونُ تنبيهاً للحاكم من الخطر، وتقديماً للعبرة. ولكنَّ التَّنبيه والعبرة يكونان بالحكاية المثليَّة، أو الإليكوريَّة، وهي ما بُنيَ عليها كتابُ كَلِيلَةِ وِدْمَنَةِ؛ فهو مجموعةٌ من الحكاياتِ على لسان الحيوان، ظاهرها التَّسلية، وباطنُها العِظَةُ والتَّنبيه، ومدارُها كُلُّها الأمةُ وحمايتُها من الخطر، وتقديمُ ما يُنجيها منه.

(\*) جامعة البصرة / كلية الآداب.

الكلمات المفتاحية: كتاب الأمم - ابن المقفع -  
كليّة وِدْمَنَة - الأمّة - الحكاية الأمّ.

### ما كتاب الأمم؟

يُنَبِّه النّقاد المعاصرون على أنّ الأمّة كيان سياسيّ، مُتَخَيَّل، أو جماعة مُتَخَيَّلَة<sup>(١)</sup>. وأنّه، لذلك، يحتاج إلى مَرْوِيَّات تُعَزِّزُه. وتنقسم إلى مباشرة، بأن تكون روايات ترمز إلى أصول الأمّة، وتكونها، وإلى مَرْوِيَّات غير مباشرة، بأن تُرَبِّي الفرد، لتَقْدِيم أُمْنٍ ما لديه لهذا الكلّ العظيم المُسمى (الأمّة)<sup>(٢)</sup>، داربًا عنها حَظَر التَّمَرُّق، والزوال. ولعلّ هذه الوظيفة الأخيرة، هي ما تؤدّيه الكُتُب، التي اصطلح عليها (كُتُب الأمم). ومن أبرزها، وأشهرها، وأشدّها تأثيرًا، وحضورًا في حياة الأمّة، كتاب (كَلِيلَة وِدْمَنَة) لابن المقفّع، أو ترجمة ابن المقفّع. وأهم سمات هذه الكُتُب، وتحديدًا كتاب كَلِيلَة وِدْمَنَة، الآتي:

١. كِتَابٌ يُؤَلَّفُ في سياق تاريخيّ، تبرز فيه سلطة مَرَكْزِيَّة، تتمتع بقوة عسكريّة، تُنشئ وتحرس الأمّة من جانب، ومن جانب آخر، تُمارس على شعبيها (الاستبداد والقهر والبطش الذي لا يعرف رفقًا ولا لينًا)<sup>(٣)</sup>، ولا سيما على الأقليات، والمُخْتَلَفِينَ دينيًّا ومذهبيًّا وعِرْقِيًّا، وتزدرئهم، وتُسكِّتهم فلا تَسْمَحُ لهم بالكلام، أو التّعبير عن خصوصياتهم اللُّغويّة والثّقافيّة، فقد ساد شعورٌ

(١) نادر كاظم، أمة لا اسم لها، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٢١، ص ١٨-١٩.

(٢) م. ن، ص ٢٧.

(٣) شوقي ضيف، العصر العبّاسيّ الأوّل، دار المعارف، مصر، ط ٩، ص ٢٦.

عند العَرَب أَنَّهُمْ خُلِقُوا لِيَسُودُوا وَغَيْرُهُمْ خُلِقَ لِيُخْدَمَهُمْ<sup>(٤)</sup>. وكانوا -الأقليات - في التّرتيب أدنى طَبَقَاتِ المُجْتَمَع<sup>(٥)</sup>. وقسمٌ من هؤلاء، ومنهم ابنُ المُقَفِّع، الفارسيّ الأصل، صاروا يَتَجَهَّون إلى نصيحة الحاكم بأسلوبٍ صريحٍ مرّة، وبأسلوبٍ غير صريحٍ أخرى؛ لتنبئهم إلى أنّ التّسلّطَ حَظَرٌ على الأمّة، واقترح كِتَابِيَّةً له، تتضمّن الطّريقة لحفظها، وتجنّبها الخطر؛ فهو تابع للسلطة، ومُمَثِّلٌ، في الوقتِ نفسِه، لرموزها، لا قدرة عنده، في ظلّ سلطةٍ قويّة ومَرَكْزِيَّة، على التّكلم بصوته. وخيرٌ له أن يَسْتَعْمَلَ أسلوبًا أدبيًّا، رمزيًّا، للحديث عن مَوْضُوعٍ مثل الأمّة، من مَصْلَحَةِ فَنَائِ المُجْتَمَع، كلّها، الاتّفاق على شكله، وطريقة إدارة علاقات السلّطة فيه، فيما يسميه مُحَمَّدٌ عابد الجابريّ محاولة ابن المقفّع تشكيل ما يمكن أن يُدعى رأي الخاصة -المُتَقَفِّين- في أحوال الدّولة العامّة<sup>(٦)</sup>. وقد تُرجم كِتَابُ كَلِيلَة وِدْمَنَة في زمن الخليفة العبّاسيّ القويّ، أبي جَعْفَر المَنْصُور (وَلِيَ الخِلَافَة سن ١٣٦-١٥٨هـ).

٢. كِتَابٌ له قيمة قوميّة. هذا ما يقوله، صراحةً المَلِكُ دَبْشَلِيمُ لِلْحَكِيمِ بَيْدَبَا: أريدُ أن تُؤَلَّفَ لي كِتَابًا يَكُونُ علامةً على مُلْكِي، مثلما فعلتُ آبائي

(٤) عبد العزيز الدوري، العصر العبّاسيّ الأوّل، مطبعة التفيض، بغداد، ١٩٤٥، ص ٦.

(٥) شوقي ضيف، العصر العبّاسيّ الثاني، دار المعارف، مصر، ط ١٠/١٩٩٦، ص ٥٣.

(٦) يُنظَر: هيثم سرحان، تمثيلات التابع والردّ بالكتابة - قراءة بلاغيّة في الرسالة الهاشمية لابن المقفّع، المجلة العربيّة للعلوم الإنسانيّة، جامعة الكويت، العدد ١٦٦، ٢٠٢٤، ص ١٧٦-١٧٧.

في تأليف كتبٍ كانت علامة على مُلكِهِمْ. ويسرّ الحَكِيم للطلب، ويطرب له، ويخفُّ إلى تنفيذه؛ فهذا ما يبحث عنه، حتَّى يصون أُمَّتَه. ومعها - أي كُتِبَ الأُمَم - تُريدُ كُلُّ أُمَّةٍ من الأُمَمِ أَنْ يَكُونَ لها واحدٌ مثله؛ ففي مقدمة الكتاب، أن كسرى أنوشروان طلب أن يُجلبَ الكتابَ له من خزائن ملكِ الهند، الذي يحرصُ على ألا يخرجَ منها إلى الأُمَمِ الأُخرى. ويكلف كسرى طبيباً يدعى برزويه، ويعطيه من الأموال كثيرًا، ليصل إلى الكتاب بعد أن يوهم مُقربِي المَلِكِ أَنَّهُ محضُ طالب علم، ليصل إلى خزانة الملك، وينسخَ الكتابَ سرًّا، ليلاً، ويحمله إلى كسرى، الذي يفرحُ به؛ فهو مدعاة لرغبة الأُمَمِ في امتلاك واحدٍ مثله: مُؤَلِّفًا، أو مُترجمًا، فحين نقله عبدُ الله بنُ المُقَفَّعِ إلى العَرَبِيَّةِ حسده علماءُ اللُّغة الفارسيَّةِ الفارسيَّةِ<sup>(٧)</sup>. ويقول أحمد أمين: إنَّ ابنَ المُقَفَّعِ ترجمه، وزاد فيه، ليعملَ في الخلفاء، والرَّعية، ما فعله في الهند وفارس<sup>(٨)</sup>. وقد كان، أي ابن المُقَفَّعِ، حريصًا على أن يَكُونَ لَأُمَّةِ العَرَبِ كِتَابٌ مثله؛ لذا نقله إلى العَرَبِيَّةِ.

٣. كِتَابٌ يحظى بمكانة عالميَّة، فيُترجم إلى أُمَم، وشعوب كثيرة، مُختلفة. ويجد فيه القراء منهم فائدةً ومُتعة؛ فقد نُقلَ كَلِيلَةُ وَدِئْمَةِ إلى (اللُّغة التَّيْبِيَّةِ والفارسيَّةِ ومن هذه إلى العَرَبِيَّةِ

(٧) عبد الله بن المُقَفَّعِ، كَلِيلَةُ وَدِئْمَةِ وتاريخها، منشورات المؤسسة المتحدة للكتاب، بيروت، ط ٢/ ١٩٨٠، من تقديم: محمد حسن نائل المرصفي، ص ١٥.  
(٨) أحمد أمين، ضحى الإسلام، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢، ص ١٣٢.

إلى معظم لغات العالم المُتمدَّن حتَّى الفارسيَّة والهنديَّة فإنَّهم نقلوه إليهما من اللُّغة العَرَبِيَّةِ<sup>(٩)</sup>. وتُرجم إلى السَّريانيَّة، في حدود القرنِ العاشر، وإلى اليونانيَّة سنة ١٠٨٠، وإلى الفارسيَّة سنة ١١٢٠، وإلى العبرانيَّة، واللاتينيَّة، في القرنِ الثالث عشر، وإلى الاسبانيَّة سنة ١٢٥١، وإلى الإنكليزيَّة سنة ١٨١٩، وإلى الرُّوسيَّة سنة ١٨٨٩. ولاحقًا تُرجم إلى الفرنسيَّة، والإيطاليَّة، والسَّلافيَّة، والتُّركيَّة، والألمانيَّة، والدَّنامركيَّة، والهولنديَّة، وغيرها<sup>(١٠)</sup>.

٤. كِتَابٌ منسوب إلى أُمَّةٍ تحرصُ على ألا يخرجَ منها إلى غيرها من الأُمَم؛ فقد (ظلَّ هذا الكتابُ محفوظًا في خزائن مُلوكِ الهندِ يحرصون عليه حرصهم على أئمنِ الكنوز، لا يسمحون لسواهم بالاطِّلاعِ عليه)<sup>(١١)</sup>. وكان بيدَ الحَكِيمِ، مُؤَلِّفِ الكتاب، طلب من المَلِكِ المُحافظة على الكتاب، (فلا يخرج من بلاد الهند فيتناولها أهل فارس إذا علموا به)؛ لأنَّه يعكسُ رؤيتهم للطَّريقة التي تُبنى عليها الأُمَّة، وتَقوَّى، وتَسْتَمِرُّ. وهي ميزتهم، لا يريدون لغيرهم أن يصلَ إليها، فيَقوَّى بها، ويُشكِّلَ خطرًا عليهم.

٥. كِتَابٌ لا يضيع، ولا يندثر. ويبقى حاضرًا:

(٩) ابن المُقَفَّعِ، كَلِيلَةُ وَدِئْمَةِ وتاريخها، سابق، تقديم: محمد حسن نائل المرصفي، ص ١١.  
(١٠) يُنظر: م. ن، ص ١٦.  
(١١) سأضع النقول الحرفيَّة من كتاب كَلِيلَةُ وَدِئْمَةِ بين قوسين منفردين. وهي من: عبد الله بن المُقَفَّعِ، كَلِيلَةُ وَدِئْمَةِ، تحقيق مصطفى لطفي المنفلوطي، دار الكتاب العَرَبِيّ، بيروت-لبنان، د.ت.

نَسَخًا، وإعادة نشر، وقراءة، وبحثًا فيه؛ فهو الكتاب الذي (بقي على الدهر وارتفعت به أُمم مُختلفة)<sup>(١٢)</sup>. ويقول جرجي زيدان: إِنَّ الكتاب في القديم، وقتُ تُرجمَ إلى العَرَبِيَّةِ، وأُطْلِعَ عليه العَرَبُ، أُعجبوا به، وتدارسوه، وتناقلوه، واشتغلوا بنظمه شِعْرًا، تَسْهِيلاً لحفظه، وطُبِعَ مرارًا في العصر الحديث. وهو إلى الآن ما يزال من خيرة كُتُب الإنشاء<sup>(١٣)</sup>.

٦. كِتَابُ تَكُونُ نِسْبَتُهُ لِقَوْمٍ، لَا لِمُؤَلِّفٍ، فَـ(كَلِيلَة وَدِمْنَة)، فِي الْأَصْلِ يُؤَلَّفُ بِطَلَبٍ مِنَ الْمَلِكِ دَبْشَلِيمَ، وَيُرِيدُهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ، حَتَّى يُلْحَقَهُ بِآبَائِهِ، فِي عِلْوِ الذِّكْرِ. ثُمَّ، فِي نَسَخَتِهِ الْفَارْسِيَّةِ، هُوَ مِنْ نَسَخِ (بَرْزَوِيهِ)، وَيُسْتَقْدَمُ مِنْ خَزَائِنِ مَلِكِ الْهِنْدِ بِطَلَبٍ مِنْ كَسْرَى. وَفِي الْعَرَبِيَّةِ هُوَ مِنْ تَرْجَمَةِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ، وَلَيْسَ مِنْ تَأْلِيفِهِ، وَإِنْ كَانَتْ شُبْهَةً التَّأْلِيفِ وَارِدَةً عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ أَصُولَهُ الْهِنْدِيَّةَ، وَالْفَهْلَوِيَّةَ، ضَاعَتْ. وَلِأَنَّ أَبَوَابًا أُضِيفَتْ إِلَيْهِ. وَتَرُدُّ إِشَارَةً، أَجْدُهَا بَلِيغَةٌ فِي هَذَا السِّيَاقِ؛ لِأَنَّهَا تُحَاوِلُ أَنْ تَفْصَلَ بَيْنَ الْمُؤَلِّفِ وَالكِتَابِ، بِالْفَصْلِ بَيْنَ شَخْصِيَّتَيْنِ لِابْنِ الْمُقَفَّعِ، الْأُولَى: الذَّاتِيَّةُ، وَالثَّانِيَّةُ: الْجَمْعِيَّةُ. أَمَّا الذَّاتِيَّةُ فَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ مَيُولٍ إِلَى الزُّنْدَقَةِ، تَوْلَدَ مِنْهَا مَيُولٌ إِلَى اللَّهْوِ وَالْمُجُونِ، وَهَذِهِ لَا يَصْدُرُ عَنْهَا، مُؤَلِّفًا، كِتَابٌ فِي الْحِكْمَةِ مِثْلَ كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ. وَالْجَمْعِيَّةُ هِيَ مَا اِكْتَسَبَهُ مِنْ

(١٢) ابْنُ الْمُقَفَّعِ، كَلِيلَة وَدِمْنَة وَتَارِيخُهَا، سَابِقٌ، تَقْدِيمُ:

مُحَمَّدُ حَسَنُ نَائِلِ الْمَرْصُفِيِّ، ص ١١.

(١٣) يُنْظَرُ: تَارِيخُ آدَابِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، رَاجِعُهَا وَعَلَّقَ عَلَيْهَا الدُّكْتُورُ شَوْقِي ضَيْفٌ، دَارُ الْهَلَالِ، الْقَاهِرَةُ، د.ت، ج ٢، ص ١٣٤-١٣٥.

قِرَاءَةِ الْحِكْمَةِ وَالْعُلُومِ<sup>(١٤)</sup>. وَهَذِهِ لَيْسَتْ لَهَا، وَأَقْرَبُ إِلَى عُلُومِ الْأُمَّةِ، أَوْ الْأُمَمِ، فِي حَالَتِهَا؛ لِأَنَّه مُطَّلَعٌ عَلَى أَدَبِ الْفَرَسِ بِسَبَبِ أَصُولِهِ الْفَارْسِيَّةِ، وَيَعْرِفُ لُغَاتٍ أُخْرَى، وَمِنْ ثَمَّ، فَلَا تَنَاقُضَ بَيْنَ زُنْدَقَتِهِ، وَمَيُولِهِ، وَمَا يَنْتُجُ مِنْ كُتُبٍ، مِثْلُ: الْأَدَبِ الصَّغِيرِ، وَالْأَدَبِ الْكَبِيرِ، وَكَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ. وَهِيَ كُتُبٌ فِي سِيَاسَةِ الرِّعْيَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الْعَامَّةِ، وَالْخَاصَّةِ؛ إِذْ هَذِهِ لَيْسَتْ كُتُبُهُ بَلْ كُتُبٌ قَوْمِيَّةٌ، وَخِلَاصَةُ الْعَقْلِ الْجَمْعِيِّ.

٧. إِنَّ مُؤَلِّفَهُ - وَمُتَرَجِّمَهُ مِنْ بَعْدِ - لَا يَعْنِي بِأَمْرِ الدِّينِ؛ فَلَمْ يَكُنْ دَبْشَلِيمَ إِلَّا حَكِيمًا، هَمُّهُ مَصْلَحَةُ أُمَّتِهِ، وَفِي الْكِتَابِ، كِتَابُ كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ، إِشَارَاتٌ إِلَى أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ، وَهُمْ طَبَقَةُ رِجَالِ الدِّينِ الْهُنُودِ، أَشْرَارٌ غَايَتُهُمْ مَصْلَحَتُهُمْ الشَّخْصِيَّةُ، وَكَانَ بَرْزَوِيهِ نَاقِلَ الْكِتَابِ إِلَى كَسْرَى طَبِيبًا، وَحَكِيمًا. ثُمَّ إِنَّ ابْنَ ابْنِ الْمُقَفَّعِ كَانَ حَكِيمًا مُطَّلَعًا عَلَى كُتُبِ الْأَدَبِ<sup>(١٥)</sup>، وَكَانَ ذَكِيًّا، شَدِيدَ الذِّكَا، دَقِيقَ الْحَسِّ<sup>(١٦)</sup>. وَلَكِنَّهُ مِنْ نَاحِيَةِ الْإِعْتِقَادِ كَانَ زُنْدِيقًا<sup>(١٧)</sup>. وَلَعَلَّهُ وَصَفَ أَلْصَقَ بِهِ، نَتِيجَةُ تَغْلِيْبِهِ مَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ، عَلَى الْمَصْلَحَةِ الدِّينِيَّةِ، أَوْ الْإِثْنِيَّةِ. وَهِيَ مَصْلَحَةٌ تَتَحَقَّقُ بِالتَّأَمُّلِ، وَالتَّدَبُّرِ، وَبِالشَّرَاكَةِ الْعَاطِفِيَّةِ، وَتَشْمَلُ النَّاسَ، كُلَّهُمْ، أَيَّا كَانَ دِينُهُمْ، أَوْ مَذْهَبُهُمْ، أَوْ عِرْقُهُمْ، أَوْ لَوْنُهُمْ. وَقَدْ اسْتَنْتَجَ:

(١٤) ابْنُ الْمُقَفَّعِ، كَلِيلَة وَدِمْنَة وَتَارِيخُهَا، سَابِقٌ، تَقْدِيمُ:

مُحَمَّدُ حَسَنُ نَائِلِ الْمَرْصُفِيِّ، ص ٢١.

(١٥) يُنْظَرُ: شَوْقِي ضَيْفٌ، الْفَنُّ وَمَذَاهِبُهُ فِي النُّثْرِ الْعَرَبِيِّ،

دَارُ الْمَعَارِفِ، الْقَاهِرَةُ، ط ١٠، د.ت، ص ١٣٤.

(١٦) يُنْظَرُ: نَفْسُهُ، ص ١٣٧.

(١٧) يُنْظَرُ: م. ن.، ص ١٣٦.

أي الوصف، من تأويل قصص الكتاب؛ فقليل إن فيها حكَم الديانات القديمة، مثل المانوية، والمزدكية، والزرادشتية، وتعاليمهم. وقد حرص المترجمون، ومنهم ابن المقفع، ولا سيما في كلية ودمنة، على نقلها عبر الترجمة. وإنها كانت سبباً في ازدياد جماعة الزنادقة<sup>(١٨)</sup>. وفيها، أيضاً، من الإسلام قيماً، وطريقة تفكير، وتناصاً مع القرآن، والحديث النبوي<sup>(١٩)</sup>.

٨. كتاب يظل في حاجة إلى الاتمام، ويرجح بعض الباحثين أن ابن المقفع زاد على الكتاب فصولاً لم تكن في الأصل، وكذلك بعض القصص، وهو في الأصل كان قصصاً متفككة، ضمت، وزيد عليها<sup>(٢٠)</sup>. وقد عدلت (ترجمة عبد الله بن المقفع) بتوالي الأزمان -يقول جرجي زيدان- بين تنقيح، وتذييل، فبلغت أبوابها ٢١ باباً<sup>(٢١)</sup>. ويرجع ذلك إلى أنه لا يتوقف في زمان، أو مكان. بل يمرّ منهما إلى غيرهما، فيحتاج، من يستعمله في سياقه الجديد، إلى الإضافة إليه، من دون أن يمسّ بدعواه، أو غاياته القوميّة، والإنسانيّة.

٩. كتاب يُستخدم للتصدي لخطر يعرض للأمة. وفي مرويّات قديمة ادّعاء بأنّ أول ظهور لـكليلة ودمنة في الثقافة العربيّة، كان في أثناء حياة

(١٨) يُنظر: م. ن، ص ١٢٣.

(١٩) يُنظر: عمر فروخ، عبد الله بن المقفع وكتاب كليلة ودمنة، منشورات مكتبة ميمنة، بيروت، ط ٢/ ١٩٤٩، ص ١٥.

(٢٠) يُنظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربيّ، سابق، ص ١٣٨-١٣٩.

(٢١) يُنظر: جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربيّة، سابق، ١٣٤/٢.

النبيّ؛ إذ إنّ الضرر بن الحارث كان في بلاد فارس، فعلم ما في كتاب كليلة ودمنة، فعمد إلى شرائه، وجعل يحدث به قريشاً، فاستملحوه، وتركوا الاستماع إلى القرآن<sup>(٢٢)</sup>. وبين أن قريشاً، شعرت بخطر النبيّ على مفهوم الأمة، الذي يتبنونه، ووجودها، فلجأوا إلى كتاب، خاصيته البعيدة، التنبيه إلى الخطر، وتفتيته. وكليلة ودمنة في سبب تأليفه: إنه كان لمواجهة الخطر الذي يعرض للحاكم، ونظام الحكم، وللأمة من ثمّ.

١٠. الكتاب الملتبس النسبة إلى مؤلفه، أو مترجمه، وكتاب لم يؤلفه رجل واحد في زمن واحد<sup>(٢٣)</sup>. ومن المعروف أن كليلة ودمنة بنسخته العربيّة، قد ضاعت أصوله الهنديّة، والفارسيّة؛ لذا شكّ قسم من المؤرّخين في أنه ترجمه، فقالوا: (إنّ هناك من قال إنّه من وضع ابن المقفع وهو قول مقبول لا بأس به)<sup>(٢٤)</sup>. وقطع صاحب كتاب الوافي بالوفيات بأنّ الكتاب صنعه ابن المقفع، وعزاه إلى الهند<sup>(٢٥)</sup>. ويقول عمر فروخ: إنّ الكتاب

(٢٢) يُنظر: عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، تحقيق زياد كاظم، آشور، بغداد، ط ٣/ ٢٠٢٣، المقدمة، ص ٩-١٠.

(٢٣) يُنظر: عمر فروخ، عبد الله بن المقفع وكتاب كليلة ودمنة، سابق، ص ١٧.

(٢٤) أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، بيروت، د.ت، ج ٢، ص ١٦٥.

(٢٥) يُنظر: صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت-لبنان، ط ١/ ٢٠٠٠، ج ١٧، ص ٣٤٢.

لا يدلّ على شَخِصِيَّة ابن المُقَفَّع، ولا يمثّله؛ لأنّه نقله، أو جمع آراء، وألّف بينها فيه<sup>(٢٦)</sup>. ولعلّ هذا التّشكيك في النّسبة، يحصر دور الكتاب في الوظيفة القوميّة، التي تُعلّق عليه أثرًا، في الحفاظ على بقاء الأمّة، وتماسكها.

١١. كتاب لا ذكر فيه للمُختلفين: إثنيًا، أو جنسيًا، أو عنصريًا. ولا يحيل إلى انتماء مؤلّفه لأيّ ممّا مرّ؛ لأنّ الانتماء ذاتي، وانفعالي، ولا يخلو من عداوة، وصدّام، وابن المُقَفَّع رجل فكر. موضوعي، قليل التّنويه بنفسه، له قدرة على فهم النّفس الإنسانيّة، والروح الذي يسيطر على المُجتمع الإنساني<sup>(٢٧)</sup>. وهو يُعلّب المُثل العليا على الإنسان<sup>(٢٨)</sup>. ولا يتحدّث عن سلطة زمنيّة بعينها، أو شخوصها. يظهر ذلك في أنّه لجأ إلى الأليغوريا. ومعروف أنّها تعرض شخصيّات بشريّة، أو حيوانيّة، أو تجريدات مُشخّصة، (تكون لصفاتها وأزيائها ولأعمالها وحركاتها قيمة العلامات، وتتحرك هذه الشّخصيّات في مكان وزمان لهما بدورهما طابع رمزي)<sup>(٢٩)</sup>. ويقول عنه عمر فروخ: إنّهُ تعريض بكلّ حاكم ظالم<sup>(٣٠)</sup>. وعلى صعيد سيرة ابن

(٢٦) يُنظر: عمر فروخ، عبد الله بن المُقَفَّع وكتاب غليّة ودُمّة، سابق، ص ٦.

(٢٧) يُنظر: م. ن.

(٢٨) يُنظر: م. ن، ص ١٣.

(٢٩) محمد القاضي، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، ٢٠١٠، ص ٣٤.

(٣٠) يُنظر: عمر فروخ، عبد الله بن المُقَفَّع وكتاب غليّة ودُمّة، سابق، ص ٣.

المُقَفَّع، معروف أنّه قُتل بيد الخليفة العبّاسيّ المنصور؛ لأنّه لم يكن من أتباعه سياسيًا، وكان، في رواية، يسعى مع بعض الفرس، لقلب الدّولة العبّاسيّة لصالح العلويين<sup>(٣١)</sup>.

١٢. كتاب فيه بُعد تعليمي: سياسي، واجتماعي، وثقافي، وأدبي؛ فسياسيًا، هو يُعلّم الأمراء كيف يحكمون الرّعايا، وكيف يتقي بعضهم بعضًا. واجتماعيًا، يعلم النّاس كيف يتعايشون، ويسيرون على طاعة أولي الأمر منهم. وثقافيًا يُعلّم المُثل العليا الثّابتة، عماد المُجتمع. مثل طاعة السّلطان، وحُسن الصّدقة، والصّدق في القول، والعمل، وأدب الضيافة<sup>(٣٢)</sup>، وما على السّلطان أن يُلزم به نفسه (من حلم وعقل وتجنب للغضب، وحفظ للعهد والوفاء ووضع المعروف والإحسان في موضعهما، وحُسن السّيرة، واختيار الصّالح من الأعوان والحرص على أهل الثّقة منهم، واستشارة أصحاب الرّأي، والعدل بين الرّعية، وحُسن السياسة الخارجيّة، وتقدير السّلم على الحرب)<sup>(٣٣)</sup>. وقلّ أن يُهمّل البُعد التّعليمي، كاتب يكتب عن غليّة ودُمّة.

١٣. كتاب يُرَكِّز على القارئ، وعلى القراءة. يقول ابن المُقَفَّع: (وينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وُضعت له، وإلى أيّ غاية جرى مؤلّفه فيه عندما نسبّه إلى البهائم وأضافه

(٣١) يُنظر: م. ن.

(٣٢) يُنظر: م. ن، ص ١٣.

(٣٣) عبد الله بن المُقَفَّع، غليّة ودُمّة، تحقيق مصطفى لطفي المنفلوطي، سابق، ص ١٦ من تقديم عمر ابو النصر.



إلى غير مُفصّل وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالا، فإنّ قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني ولا أيّ ثمرة يجتني منها ولا أيّ نتيجة تحصل له من مُقدّمات ما تضمّنّه هذا الكتاب)، فلا ينبغي أن يكتفي القارئ بظاهره. بل عليه عدّ كلّ شيء فيه رمزاً لما هو أبعد وأنفع. وعليه معرفة أنّ القراءة الجيدة للكتاب لا تكون إلا بإدراك مداه الرّمزي<sup>(٣٤)</sup>.

### سؤال العقل والعاطفة في كتاب الأمم

على أيّ شيء تعتمد الأمة، كما تفترضها كتب الأمم، أو سردياتها الاعتبارية؟ على الإيديولوجيا أم على العاطفة؟ هذا هو -أفترض- السؤال الذي تريد أن تجيب عنه كليلّة ودمنّة. أشير إلى أنّه يوجد أكثر من فهم للأمة، الأوّل: المتعالي، الذي يفترض وجود مشتركات. مثل اللّغة، والأرض، والتاريخ، وغيرها.. تُحتّم على الجماعة أن يشكّلوا أمة، وأمة غير قابلة للزوال، وإنّ تعرضت للانحطاط، في مرحلة من مراحل تاريخها، أو الاحتلال. أي أنّ الأمة كائن عضويّ، والثاني يعتقد أنّها (بناءً على ويصنع بإرادة البشر وقرارهم، وينهار، كذلك، بإرادة البشر وقرارهم<sup>(٣٥)</sup>). والأوّل إيديولوجي، يعتمد على منظومة من الأفكار، تُفسّر التاريخ، والواقع، ولها سمة التنبؤ بالمستقبل، والقسريّة، أي تُفرض على الجماعة بالقوة. ولذا تتبنى،

(٣٤) يُنظر: عبد الفتاح كيليطو، من شرفة ابن رشد، دار توبيقال للنشر، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، المغرب- الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص ١٢، فصل كيف نقرأ كليلّة ودمنّة.

(٣٥) نادر كاظم، أمة لا اسم لها، سابق، ص ٥٦.

عادة، سياسياً. أما الثانية فاعتباريّة، تعتمد على السرد، التجارب، واستحضار المرويّات الدالة على إمكانية إنشاء الأمة، وسبل استمرارها، أو انهيارها. وأدعو هذا النوع من السرد (السرد الاعتباري). وكتاب الأمم عند ابن المقفّع، يقترب من الفهم الثاني. يعود ذلك إلى هوية ابن المقفّع، وتجربته الشخصيّة، وشخصيته؛ فعلى صعيد الهوية، هو فارسيّ، وليس عربيّ. وإذا كان كذلك، فإنّه يحتاج إلى تصوّر غير المبنيّ على العرق؛ لأنّ هذا ولدّ عداوة مُستعرة، عُرفت بالشعوبية، وكانت مصدر تهديد للأمة. ويحتاج إلى تصوّر مبنيّ على إرادة نوع من أنواع التفاهم حول العيش المشترك، وإرادة ذلك العيش.

أما على صعيد تجربة ابن المقفّع الشخصيّة مع الدولة، ومع الحاكم، فإنّه لم يكن يحبّ الخليفة المنصور، ولم يكن الأخير يحبه، وإنّ العداء كان مُستحكماً بينهما<sup>(٣٦)</sup>، وذلك جعله يدرك أنّ العداوة، التي تتّسع بسبب طريقتيه في الحكم، ستنتهي إلى القضاء على الحكم، وعلى الأمة. والعداوة، تاريخياً، كانت قد بدأت تتّسع؛ لأنّ العبّاسيّين أعداء للأمويّين، الحكّام السّابقين. ثم صاروا أعداء للعلويّين، الذين بدأت ثورتهم على الأمويّين معهم، وحين نجحت استأثروا بها.

(٣٦) يُنظر: عمر فروخ، عبد الله بن المقفّع وكتاب كليلّة ودمنّة، سابق، ص ٩. وكانت العداوة هذه سبباً في قتل ابن المقفّع قتلة شنيعة على يد عامل المنصور، سُفيان بن معاوية، الذي سجّر تنوّراً، وأمر أن تُقطّع أعضاؤه عضواً فعضواً، وتُلقي في النار، وهو يرى. يُنظر: الصفيدي، الوافي بالوفيات، سابق، ج ١٧، ص ٣٤١.

ثم للعائلة العباسية نفسها؛ فعبدُ الله بن علي بن العباس، عم المنصور ثارَ عليه، وكان ابن المُقَفَّع كاتبَ أخيه عيسى بن علي، وقريباً من تفاصيل الصراع، وكان طرفاً في تسويته؛ إذ هو كَتَبَ الأمان لعم الخليفة. ونتيجة لذلك، كلُّه، يقول عبد الفتاح كيليطو: إنَّ الكتابَ نشأ (في مناخٍ من الارتياح والنزاع السافر أو الكامن)<sup>(٣٧)</sup>.

بقيت شخصيته، وكانت، كما يصفها المؤرخون، مُحبّة، كريمة، عطوف. وكان في طباعه، سرّاً، سَخِيّاً، يُطعم الطّعام، ويصل كلَّ مَنْ احتاج إليه<sup>(٣٨)</sup>. وكانت شخصيته نزاعة إلى التعايش، على وفق شرطٍ غير العرق، والدين. شرط إنساني، يَصَحُّ أَنْ يُسَمَّى (المودّة)؛ فبهويته - ابن المُقَفَّع - وتجربته، وطبيعة شخصيته، حاول، في كَلِيلة ودِمْنَة، الإجابة على سؤال العقل والعاطفة.

### كِتَابُ الْأُمَمِ وَالْحِكَايَةِ الْأُمِّ

كِتَابُ الْأُمَمِ، كِتَابُ سَرْدٍ اعْتِبَارِيٍّ، أي يريد للقارئ أَنْ يَسْتَخْلَصَ من الحِكَايَةِ العبرة، التي تفيد في فهم ما يَحْسُنُ فهمه، حَتَّى يُجَنَّبَ نَفْسَهُ، وَأَمَّتَهُ، خَطَرَ التَّفَقُّتِ، والزَّوَالِ. ومثل أيِّ كِتَابٍ سَرْدِيٍّ، فهناك بنية عميقة توجه بناءه الكلي، وتتحكَّم بحكاياته. وتتألف البنية العميقة من ثلاثة عناصر رئيسة. هي: الخطر، وطريقة مواجهة الخطر، والعبرة. وكلُّها تَظْهَرُ في الحِكَايَةِ الْأُمِّ. وتُسمَّى في الدِّراسَاتِ السَّرْدِيَّةِ (الحِكَايَةِ الْإِطَارِ).

(٣٧) من شرفة ابن رشد، سابق، ص ١١.

(٣٨) يُنْظَرُ: الوافي بالوفيات، سابق، ج ١٧ ص ٣٤٠.

وهي قِصَّةُ الْكِتَابِ، وسبب تأليفه. وتحكيها شَخْصِيَّةٌ اسمها (بهنود بن سحوان)، ويُعرف بـ(علي ابن الشَّاهِ الفارسي)، والسبب هو خَطَرُ يَعْرِضُ لِلأُمَّةِ، مُتَمَثِّلاً بِالاحتلال؛ فقد كان السبب الذي من أجله وضعَ بَيْدَبَا الفيلسوف لدبشليم ملك الهند كِتَابَ كَلِيلة ودِمْنَة أَنْ الاسكندر ذا الْقَرْنَيْنِ الرُّومِيَّ، أَرَادَ غزو بلاد الهند، فاستعدَّ له ملكُها، ثم التَّقِيَا، فانتصر الاسكندر. ووضع، أولَ أمره، عليهم رجلاً من عنده، ثم بعد مدّة رفضوه؛ لأنَّهُ ليسَ منهم، واجتمعوا يُملِّكونَ عليهم رجلاً من أولاد ملوكهم، اسمُه دبشليم. الْكِتَابُ يَبْدَأُ، إِذْنِ، بِخَطَرِ يَواجهُ الأُمَّةَ، هو الاحتلال. وهو أعلى درجات العداوة؛ إذ هناك من يتوجّه إلى القضاء على الذات: فعلياً، ومادياً، أي بالقتل، أو بإذلالها، وحكمها. والاسكندر يضع على الهنود رجلاً من ثقافته. وليست مُصادفة أَنْ يَبْدَأَ الْكِتَابُ بِالاحتلال، أَوْ بِخَطَرِ يُهدِّدُ الأُمَّةَ.

وفي الحِكَايَةِ الْأُمِّ خَطَرٌ آخَرُ: داخلي يتمثّل في جَوْرِ الْحَاكِمِ الْمَحَلِّيِّ، دبشليم: (فلما استوسق له الأمر، واستقرّ له الملك طغى، وبغى وتجبر وتكبر [...] (و) عبث بالريّة واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم وكان لا يرتقي حاله إلا زاد عتواً). ويكمن الخطر في أَنَّ الحاكم يولّد، بسلوكه الظّالِمِ، العداوة في النّفوس، ويهدّدُ الأُمَّةَ، بجَرِّها إلى الصّراع، والقتال، والتفكك. وهو، بفعله، لا يختلف عن، أثر خَطَرِ الاحتلال، في الأُمَّة. وكلاهما، الخطر الداخلي والخارجي، مبنيان على العداوة؛ ففيهما جهةٌ تلغي الآخر، وآخر يرفضُ الإلغاء، ويثور ضده.



تُبنى الحكاية الأم على خطرين: صريح، وضمني. الصريح هو الخارجي: الاحتلال. والضمني هو الداخلي: ظلم الحاكم الرعية. وتُبنى على مواجهة الخطر، الغاية الكبرى في كتاب الأمم؛ إذ المؤلف يُقدّر وجود خطر، على الأمة، ويجد أن من واجبه أن يُقدّم للحاكم، وللقارئ، طريقة مواجهته. والحكاية الأم تُري القارئ طريقتين، وتختبرهما، لترجح إحداهما على الأخرى، وتُستعملها في الحكايات المُضمّنة في الكتاب. الطريقة الأولى: المباشرة، أو غير الحكائية. وفيها يتوجّه الحكيم بيداً إلى الملك بالقول: (أيّها الملك إنك...) قد ورثت أرضهم - يقصدُ آباءه وأجداده - وديارهم وأموالهم ومنازلهم التي كانت عدتّهم فأقمتَ فيما حُولت من الملك وورثت الأموال والجنود فلم تُقم في ذلك بحق ما يجب عليك بل طغيت وبغيت وعتوت وعلوت على الرعية وأسأت السيرة وعظمت منك البلية). وواضح أن الطريقة المباشرة ليست مناسبة؛ لأنّ الملك غضب، وأمر ببيدبأ أن يُقتل ويُصلب. وغير مناسبة لأنّها أقرب إلى النزال العسكري، وفيها استثارة للعداوة، وتأجيح لها؛ فبيدبأ يعلن رفضه سلوك الملك. وهو، بذلك، يُعاديّه، أو يكشفُ له عن عدواته. وليس قدام الملك في هذا الحال إلا أن يسحق عدوه.

أمّا طريقة المواجهة الثانية فهي غير المباشرة، أو الاعتبارية، باستعمال القصص ذات المستويين: الظاهر، الإمتاعي. والباطن، الاعتباري. والطريقة يبيّنهما دبشليم، فيقول لبيدبأ: (أحببت أن تضع لي كتاباً بليغاً تستفرغ فيه عقلك

يكونُ ظاهره سياسة العامة وتدريبها على طاعة الملوك وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية). وقد فهم بيدبأ طريقة مواجهة الخطر: إنّها في الخطاب اللين، المتودّد، الذي يترقّق بالمتلقّي، أيّاً كان نوعه: من العامة أم الخاصة. من السوق أم الملوك. وأيّاً كانت حاجته إليه: استمتاعاً، أم تدبّراً واعتباراً. وهو يترقّق بالمتلقّي، ويفيده في حياته الاجتماعية: (يكونُ ظاهره لهواً للخاصة والعوام وباطنه رياضة لعقول الخاصة، وضمّنه أيضاً ما يحتاج إليه الإنسان من سياسة نفسه وأهله وخاصّته)؛ فالغاية مواجهة الخطر. ولكن بأسلوب لا يستثير العداوة. أسلوب الاعتبار، فحكايات كليلّة ودمنة تُبنى على ثنائية السرد والاعتبار<sup>(٣٩)</sup>، أسلوب ينهض على المودة، وعلى كسب ثقة الحاكم، والقارئ من بعده ويجعله يؤمن بأن خير طريقة لدفع الخطر عن الأمة، هي طريقة غير التسلط والإكراه، اللذين يجلبان العداوة. طريقة سيستخلصها القارئ من القراءة، أي العبرة. تلك التي ستنسجُ نفسها عليها الحكايات المُضمّنة داخل الإطار، أو الحكاية الأم، وتوظف لإقناع المتلقّي<sup>(٤٠)</sup>. إذا كان من الخاصة، ولتثبّت ما يريد الكتاب تثبيته، في لوعيه، إذا كان من العامة.

### الأم في كتاب الأمم

لاحظت في أثناء قراءتي كتاب كليلّة ودمنة، دوراً رئيساً للأم، والمرأة فيه، وهو دور يُفهم في سياق وصف الكتاب بأنّه كتاب أمم. والمثال

(٣٩) يُنظر: محمد القاضي، معجم السرديات، سابق، ص ١٥٦.

(٤٠) يُنظر: م. ن، ص ٣٩٢.

الأوضح لحضور الأمّ، جاء في الباب الأوّل، باب الأسد والثور. وهو بابٌ يُعقد على معنى العداوة؛ إذ يقول دبشليم المَلِك لبيدبا الحَكِيم في مفتتحه: (إضرب لي مثلاً للمتحابين يقطع بينهما الكذوبُ المُحتال حتّى يحملهما على العداوة والبغضاء). ويبدأ الباب بانتباه دمنة إلى أنّ الأسد، ملكهم، ضعيفُ الرَّأي، وأنّه يستطيع أن يصيبَ عنده منزلة ومكانة، وضعف المَلِك يُمكن الخطر من المملكة؛ لأنّه يفسح المجال للأعداء، ويُمكنهم منه. وينجح دمنة في الوصول إلى المَلِك. وحين يُقربُ ثوراً يدعى (شترية)، ويتّخذ صديقاً له، يحسده دمنة، ويكيّد له، ويخبرُ المَلِك أنّ شترية خلا برؤوس جنده وأنّه سيغدرُ به. ثم يذهبُ إلى شترية، ويخبره أنّ الأسدَ قال لبعض أصحابه وجلسائه، قد أعجبني سمن الثور، وليس لي إلى حياته حاجة فأنا أكله ومطعمُ أصحابي من لحمه. ثم أنّه أوقع العداوة في نفس الاثنين ودفع الأسدَ إلى قتل الثور. ويسمعُ أحدُ عمال الأسد، وكان ماراً على منزل كَليلة ودمنة، كَليلة يلوم دمنة على غدره، فيعلمُ الحقيقةَ فينقلُها إلى أمّ الأسد، لا الأسد نفسه!، لتدخلَ على ابنها وتلومه على فعله وتخبره من القاتل. وحين يتردّد في قتله لمقدرته على دفع الظّنة عنه بالكلام والحُجج المؤثّرة، تغضبُ الأمّ على ابنها وتقولُ له: (إنّ أنا أغلظت في القول فلا تلمني، فإنك لستَ تعرفُ ضررَ من نفيعك. أليس هذا ممّا كنتَ أنهاك عن سماعه؟). ولا تطمئنُ إلا بعقوبة دمنة، وقتلِه؛ لأنّها ترى فيه المصلحةَ له، فإنّ وصلَ

خطؤه إلى العامّة، وعلموا أنّ إصرارهم على خيانة المَلِك ممّا لا يدفعُ الشرّ عنهم، وبه تحتجُ السّفهاء، ويستحسنون ما يكون من أعمالهم القبيحة، انهارت المملكة.

تتضمّن القصّة ملكاً ضعيفاً لا يميّز بين المودة والعداوة، فيصدّق العدو ويقتل الصديق. وذلك يُشكّل خطراً على الحاكم والرّعية، يحتاج لمواجهته، ولدفعه، إلى قريب عاقل، لا شك في مودّته، حريص على المَلِك. وليس هناك أفضل من الأمّ لأداء هذا الدور. ومثل هذا الدور نجده للأمّ في باب الأسد وابن آوى الزّاهد؛ إذ تدخلُ الأمّ في الحكاية، لتتنقذ ابن آوى الزّاهد من مكر بطانة ابنها، حاسدي ابن آوى مكانته: (فعلمتُ أمّ الأسد أنّه قد عجل في أمره، فأرسلتُ إلى الذين أمروا بقتله أنّ يؤخّروه). وكان الأسدُ رغّب في ابن آوى الزّاهد، لِمَا بلغه عنه من العفاف، والنّزاهة، والزّهد، والأمانة. ولَمّا آنسه وجده في جميع الأمور فوق غرضه، فولّاه خزائنّه، واختصّه دون أصحابه، وزاد في إكرامه، فحسده أصحابُ المَلِك، ودبّروا له مكيده فأخفوا اللحم، غداً الملك، في بيته، وأخبروه أنّ ابن آوى ذهبَ باللحم إلى منزله، فأرسلَ الأسدُ، أميناً إلى بيت ابن آوى، فوجدَ فيه ذلك اللحم، فغضبَ الأسدُ، وأمرَ بابن آوى أن يُقتل.

وتشيرُ الأمّ، في حديثها مع ابنها، إلى ضرورة تمييز المودة من العداوة، فعلى المَلِك معرفة أصحابه، وإنزالهم منازلهم؛ لأنّ تضييعه

أصحاب الود، وتمكينه أصحاب العداوة، يهلكه. والنصيحة الثانية المتصلة بالأولى أن على الملك، والحاكم، أن يعاقب ذوي العداوة، حتى لا يجترؤا على ما هو أعظم، ولا يكونوا سبباً في جراءة العامة.

ومثل هذا الدور نجده للمرأة، الزوجة، في باب (إيلان وبلان وإبراخت)، ويمثل البراهمة فيها الخطر. وهم رجال الدين، الساعون في رغباتهم الدنيوية، ومصالحهم الشخصية. وهم في هذه الحالة يجسدون العداوة، الخطر الأشد على الحاكم، وعلى المملكة. وتذهب الحكاية إلى العائلة؛ كي تصوّر القصة بشاعة هذا النوع من العداوة، وخطرها، فحين يرى الملك في منامه أحلاماً تفزع، ويستيقظ مرعوباً، ويدعو البراهمة ليعبروا رؤياه، يأترون بينهم للانتقام من الملك، ويسمونه «عدوهم». والملاحظ أن البراهمة يحاولون استغلال خوف الملك، وثقته بهم، للقضاء عليه، ويتفقون على أن يقولوا للملك: إن تفسير حلمه شر، لا يزول إلا بقتل أحبائه، ومن يكرّم عليه: (نريد -يقولون له- الملكة إبراخت أم جوير المحمود، أكرم نساءك، ونريد جوير أحب بنيك إليك، وأفضلهم عندك. ونريد ابن أخيك الكريم، وإيلان خليلك، وصاحب أمرك ونريد (كآلا) الكاتب صاحب سرك، وسيفك الذي لا يوجد مثله [...]) إنما ينبغي أيها الملك أن تقتل هؤلاء الذين سميناهم لك، ثم تجعل دماءهم في حوض تملأه ثم تقعد فيه، فإذا خرجت من

الحوض اجتمعنا -نحن معاشر البراهمة- من الآفاق الأربعة نجول حولك، فنريقك ونتفل عليك، ونمسح عنك الدم، ونغسلك بالماء والدهن والطيب. ثم تقوم إلى منزلك البهي، فيدفع الله بذلك البلاء الذي نتخوفه عليك). وحين يخبرونه بما اتفقوا عليه، وأنه أن لم يمكنهم من أحبائه - في مقدمتهم امرأته، وهم يذكرونها بكُنيتها (أم) جوير- ضاع ملكه، يدخل حجرته، ويخر على وجهه، ويبكي، ما يدري أي الأمرين أعظم عليه: مملكته أم أحبائه؟ فتدخل عليه إبراخت، وتنصحه ألا يجزع، ويستعجل في القرار، وأن يميز صديقه من عدوه - نصيحة أمي الملك في الحكايتين السابقتين- وأن يلجأ إلى صاحب المودة، فيشاوره، أو من يثق في وده. وليس أقرب في الود من زوجه؛ لذا ينقل إليها كلام البراهمة، فتنبهه إلى خطرهم، منطلقاً من الثنائية: مودة/ عداوة. وفيها هي وأحبائه، من أهل بيته، ومقربيه، والحكيم. ويقابلهم البراهمة، الأعداء. وتشير عليه أن يلجأ إلى الحكيم (كابريون)، فيفعل، ويجد عنده تعبير الحلم، وما سيقع له. وكله خير، يسعده، ويرضيه. ويتحقق ما ذكره الحكيم، فينجو هو، ويقتل البراهمة، ويدوم ملكه.

تشدد الحكايات السابقة على الانتباه إلى ذوي العداوة، وتمييزهم عن ذوي المودة؛ فبالأخيرين يستقيم الملك، وتستمر الأمة. يقول الملك: ما سلمت من خطر البراهمة إلا بعد مشاورة

أهل المَوَدَّة. وإنَّه أمر لا يتأتَّى للملك، من دون مساعد، هو المرأة، أمَّا وزوجًا، أي باللجوء إلى العائلة، والثَّقة فيها، ومن بعدها، الأصدقاء، أو إخوان الصِّفا، ويخصص لهم ابن المُقَفَّع الباب الثاني من الكتاب؛ لأنَّ هؤلاء مودَّتْهم حقيقةً: (إنَّ العاقل لا يعدل بالإخوان شيئًا، فالإخوان هم الأعوانُ على الخير كلِّه)، ولأنَّ المَوَدَّة تتفوق على الطَّبَّاع الرَّذِيئَة؛ فالجُرذ، في باب الحَمَامَةِ المُطَوَّقَة، كان حريصًا على الدُّنيا، وعلى المال، لينتهي بعد تجربةٍ إلى حِكْمَةٍ مفادها: إنَّه لا شيء من سرور الدُّنيا يعدل صحبة الإخوان، ولا غمٍّ فيها يعدل البُعد عنهم. وجربت - يقول - (فعلمتُ أنَّه لا ينبغي للعاقل أن يلمس من الدُّنيا غير الكفاف الذي يدفع به الأذى عن نفسه، وهو اليسير من المَطْعَم والمَشْرَب إذا اشتمل على صِحَّة البدن ورفاهة البال). وتتفوق الصَّدَاقَةُ والمَوَدَّة على اختلاف الطَّبَّاع؛ إذ يركّز الثلاثة (الحمامة والجُرذ والغراب) على الرِّغم من اختلافهم، (الغراب من أكلة الجُرذ في الطَّبَّيعة، وهو ما خشية منه الجرذ أول أمرهما)، على أهمية الصَّدَاقَة:

الغراب: وإنَّ أولى أهل الدُّنيا بشدَّة السُّرور مَنْ لا يزال رَبُّعُه مِن إخوانه وأصدقائه من الصَّالحين معمورًا.

السلحفاة: لا عيش مع فراقِ الأحبة. وإذا فارق الأليفُ أليفَه فقد سلبَ فؤاده، وحُرم سروره، وغشي بصره.

والمساعد الأساسي للحاكم في التَّمييز بين المَوَدَّة والعَدَاوَة، بعد الأمِّ، التي تميّز ذا المودة من العدو بحدسها، وقبل أن يأتيتها البرهان، أو اليقين، الحكيم الذي يظهر في صورة حكيم، كما في قصَّة الملك والبراهمة، وفي صورة الصديق، الذي يحمل المَوَدَّة لصديقه، وينهاه عن الخطأ، ويلومُه عليه، كما في كَلِيلَة الذي يلومُ دمنة. وهو، بمودَّته الصَّادقة، يخدمُ المملكة بطريقَةٍ غير مباشرة؛ إذ يسمعُ النَّمْرُ أثناء مروره على بيت كَلِيلَة ودمنة لومَ الأوَّل للثَّاني، فيعرفُ كيدَ دمنة، وينقله للملك، فيقام العدلُ، ويرتدُّ ذوو العَدَاوَة فلا يلحق الأُمَّة شرٌّ منهم. والمساعد للحاكم، فضلًا عن الأمِّ والحكيم، الأصحاب، عمومًا، أو إخوان الصِّفا، ف(الأخوة صفة جامعة يهدف كلُّ عنصر فيها إلى تثبيت العنصر الآخر وتقويته على الاستمرار. فوجود كلِّ عنصر مُتعلِّق باستمرار وجود العناصر الأخرى. (و) العَدَاوَة صفة جامعة تهدف إلى الإلغاء، فكلُّ عنصر هو مُلغٍ للآخر ويحاول القضاء عليه. وبالتالي فوجود كلِّ عنصر مُتعلِّق باستمرار وجود العناصر الأخرى)<sup>(٤١)</sup>. والعبرة إنَّه بالمَوَدَّة تُدفع العَدَاوَة، وتَقوى الأمم، وتستمر، وتواجه المخاطر، وأشرُّها العَدَاوَة. وأنَّه إذا توفرت المَوَدَّة عند الرِّعية للحاكم، وعند الحاكم للرِّعية، نجت الأمَّة، واشتدَّت، وازدهرت.

(٤١) سعيد جبار، خطاب الأمثلة، "حوار الفكر والسلطة مقارنة تداولية معرفية"، دار كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٩، ص ٦١.

## خُلاصة

يفهم من لفظ (كِتَابُ الْأُمَمِ)، إِنَّهُ كِتَابُ غَايَتِهِ حمايةُ الْأُمَّةِ مِنَ الْخَطَرِ، الَّذِي يَهْدُهَا، خَارِجِيًّا، وَدَاخِلِيًّا. وَيَتَكَوَّنُ بِنَاءُ الْحِكَايَةِ فِي كِتَابِ الْأُمَمِ مِنْ ثَلَاثَةِ عُنَاوِينَ أَسَاسِيَّةٍ هِيَ: الْخَطَرُ، وَمُوَاجَهَةُ الْخَطَرِ، وَالْعِبْرَةُ. وَالْعِبْرَةُ مَا يَخْرُجُ بِهِ الْقَارِئُ مِنَ الْحِكَايَةِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَعْتَبِرَ بِهِ، وَيَفِيدَ مِنْهُ، وَيُطَبِّقَهُ فِي حَيَاتِهِ، لِكَيْ يَحْمِيَ نَفْسَهُ، وَيَحْمِيَ أُمَّتَهُ. وَالْعِبْرَةُ مِنْ كِتَابِ كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ تَغْلِيْبِ الْمَوَدَّةِ عَلَى الْعَدَاوَةِ، فَإِنَّ بِهَا تَسْهُلَ مُوَاجَهَةِ الْخَطَرِ. وَمَا الْعَقْلُ، وَالتَّائِي، وَالْحِلْمُ، وَالْأَهْلُ، وَالْأَصْدِقَاءُ، وَالْحُكَمَاءُ، إِلَّا مُسَاعِدُونَ، يُمَكِّنُونَ الْمَوَدَّةَ، وَيُمَدُّونَهَا بِأَسْبَابِهَا، لِتَسْتَمِرَّ، وَتَقْوَى، وَتَتَغَلَّبَ عَلَى الْعَدَاوَةِ، وَعَلَى خَطَرِهَا.

إِنَّ كِتَابَ الْأُمَمِ، كِتَابُ قَضِيَّةٍ، ذَاتُ صَلَةٍ بِالْأُمَّةِ، وَبِالْجَمَاعَةِ، لَا كِتَابُ يُعْبَرُ عَنِ الذَّاتِ وَعَنِ الْمُؤَلِّفِ، أَوْ عَنِ الْأَقْلِيَّاتِ، أَوْ شَخْصِيَّاتٍ لَهَا مَرْجِعِيَّاتٌ فِي الْوَاقِعِ. وَلَا يَمَثُلُ مَصْلَحَةُ مُؤَلِّفٍ، أَوْ دِينٍ، أَوْ مَذْهَبٍ، أَوْ إِثْنِيَّةٍ، أَوْ جِنْسٍ؛ فُغَايَتُهُ بَقَاءُ الْأُمَّةِ، وَتَعْلِيمُ حُكَّامِهَا، وَأَبْنَائِهَا، الْمَحَافِظَةُ عَلَيْهَا؛ لِذَلِكَ كُلُّهُ يُسْتَعَادُ كِتَابُ كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ عِبَرِ الْعُصُورِ، مَرَّاتٍ، وَمَرَّاتٍ؛ فَالْأُمَمُ تَحْتَاجُ، فِي كُلِّ حَقْبَةٍ مِنْ حَقَبِ التَّارِيخِ، وَبِحَسَبِ نَوْعِ الْأَخْطَارِ الَّتِي تُوَاجِهُهَا، إِلَى كُتُبِ الْأُمَمِ. وَلِذَا يَبْقَى حَيًّا وَمَوْثَرًا، وَحَاضِرًا فِي حَيَاتِنَا الثَّقَافِيَّةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَرُورِ أَكْثَرِ مِنْ أَلْفِ وَمِئَتِي سَنَةٍ عَلَى تَأْلِيفِهِ، أَوْ تَرْجُمَتِهِ.

## المصادر والمراجع

### المصادر:

- الصَّفدي: صلاح الدين خليل بن ايبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط ١/ ٢٠٠٠، ج ١٧.
- كاظم: زياد (تحقيق)، عبد الله بن المُقَفَّع، كِلِيلَة وِدْمَنَة، آشور، بغداد، ط ٣/ ٢٠٢٣.
- المرصفي: مُحَمَّد حسن (تقديم)، عبد الله بن المُقَفَّع، كِلِيلَة وِدْمَنَة وتاريخها، منشورات المؤسسة المتحدة للكتاب، بيروت، ط ٢/ ١٩٨٠. المقدمة مذيبة بتاريخ ١٩١٢.
- المنفلوطي: مصطفى لطفي (تحقيق)، عبد الله بن المُقَفَّع، كِلِيلَة وِدْمَنَة، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، تقديم عمر أبو النصر.
- أمين: أحمد، ضحى الإسلام، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢.
- جبار: سعيد، خطابُ الأمثلة، "حوارُ الفكر والسلطة مقارنةً تداولية معرفية"، دار كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٩.
- الدوري: عبد العزيز، العصر العباسي الأول، مطبعة التَّفِيض، بغداد، ١٩٤٥.
- زيدان: جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، راجعها وعلق عليها الدكتور شوقي ضيف، دار الهلال،
- ضيف: شوقي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، ط ٨.
- ضيف: شوقي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، ط ١٠/ ١٩٩٦.
- ضيف: شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط ١٠، د.ت.
- فروخ: عمر، عبد الله بن المُقَفَّع وكتاب كِلِيلَة وِدْمَنَة، منشورات مكتبة ميمنة، بيروت، ط ٢/ ١٩٤٩.
- القاضي، مُحَمَّد (تحرير)، معجم السرديات، دار مُحَمَّد علي للنشر، تونس، ٢٠١٠.
- كاظم: نادر، أمة لا اسم لها، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٢١.
- كيليطو: عبد الفتاح، من شرفة ابن رشد، دار توبيقال للنشر، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، المغرب-الدار البيضاء، ٢٠٠٩.
- الهاشمي: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، بيروت، د.ت، ج ٢.

### المجلات:

- سرحان: هيثم، تمثيلات التابع والرد بالكتابة - قراءة بلاغية في الرسالة الهاشمية لابن المُقَفَّع، المجلة العربية للعلوم الانسانية، جامعة الكويت، العدد ١٦٦، ٢٠٢٤.